المصادر الأساسية في الإنتاج الفكري العربي
معجم المطبوعات العربية و المعربة

د. عايدة نصير
أستاذ المكتبات والمعلومات

يعتبر معجم المطبوعات العربية و المعربة من أهم مصادر الببليوجرافية العربية للقرن التاسع عشر و أوائل القرن العشرين، و يعد مرجعا أساسيا لتراجم المؤلفين المدرجة أعمالهم فى هذا المصدر الببليوجرافي القيم.

جامعة هو «يوسف إليان موسى سركيس» المولود في دمشق سنة ١٨٥٦ . انتقل طفلا إلى بيروت حيث قضى بها خمسة و ثلاثين عاما. خدم بالبنك العثماني في بيروت كاتبا ثم مديرا وانتقل منها إلى دمشق وقبرص وأنقرة والقسطنطينية فى سنة ١٩١٢. رحل إلى مصر حيث استقر فى القاهرة وأنشأ مكتبة لبيع الكتب و مطبعة باسمه بالفجالة و ظل فى القاهرة إلى أن وافته المنية سنة١٩٣٢.

كان مولعا بالأدب و الآثار و جمع النقود القديمة و قد منحته الحكومة الروسية (القيصرية آنذاك) العضوية الشرفية لمعهد الآثار الروسى مكافأة له عن مقال كتب بالفرنسية عن الآثار فى تركيا.

(١) أعمال يوسف إليان سركيس : ـ

من خلال استعراض نشاطه و تتبع إنتاجه الفكري ـ بجانب الإنجاز الذي قام به بإعداد «معجم المطبوعات العربية و المعربة، نجد أنه ألف و ترجم في مجال الرحلات و الجغرافيا و الأدب : ترجم» الرحلة الجوية فى المركبة الهوائية، لمؤلفها يوليوس ورن و نشرها سنة ١٨٧٥ في طبعتها الأولى و سنة ١٨٨٤ فى طبعتها الثانية . كذلك ألف «أنفس الآثار في أشهر الأمصار» حيث قام بنشرها فى لبنان سنة ١٩٠٤ . كذلك ساهم بالتأليف و الترجمة للنشىء بثلاث كتب بتلخيص رواية «عاص و شجعان» و هى رواية جغرافية لخصها و ترجمها عن الفرنسية لأقطار أوربا الشمالية مشفوعة بنصائح للبنين و نشرها ببيروت سنة ١٨٧٤ . أما الكاتبان الآخران فقد نشرهما ببيروت سنة ١٨٨٩ بعنوان «مائة حكاية و حكاية» باللغتين الفرنسية و العربية و «مختصر التاريخ المقدس لفائدة أولاد المدارس في سوريا» «فرنسي و عربي» . هذا بجانب مقالات تاريخية و علمية نشرها بجريدة البشير و مجلة المشرق و المقتطف.

لم يكتف سركيس بالتأليف و الترجمة، بل قام بنشر «الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب، لابن الشحنة»، وجامـع الحجج الراهنـة فى إبطـال دعاوى الموازنة، للمطران يوسف داود و أضاف إليه تذييل من عنده .

بالرغم من إسهاماته في مجال التأليف و الترجمة و النشر ، يبقى «معجم المطبوعات العربية والمعربة» من أهم الإنجازات التى قام بها حيث جاء المعجم ليتوج أنشطته المتعددة . فقد كان ولعه بالكتب العربيـة وحرصـه على جمع شتاتها فى مصدر واحد، الحافز و الواقع وراء إنجاز مثل هذا العمل الرائد في مجال الببليوجرافية الحديثة «و قد جاء في مقدمة كتابه» جامع التصانيف الحديثة وهو ملحق للمعجم قوله : «و لما كثر انتشار الكتـب انتشارا عظيما و تأسست المطابع فى أكثر البلاد الشرقية اقتضى وضع فهرس مطول يكون دليلا ونبراسا يستنير به الأدباء والعلماء لمعرفة ما صنف فى اللغة العربية فى كل فن ولما كنت مولعا بالكتب دفعتني الغيرة للاشتغال بوضع سفر حافل يحتوى على أسماء الكتب التي نشرت بالطبع في الأقطار الشرقية والغربية منذ ظهور الطباعة ومازلت مكبا على الاشتغال به منذ ستة عشر سنة ...» ولما كان صدور المعجم فى سنة ١٩٢٨ فهذا يعنى أنه بدأ في التجميع له منذ أن حط رحاله في مصر سنة ١٩١٢ .

(٢) المجهودات الببليوجرافية السابقة على المعجم :

وباستعراض ما سبق معجم سركيس من أهم الأعمال في مجال الببليوجرافية العربية، نجد أن ابن النديم قد وضع اللبنة الأولى في صرح الببليوجرافية العربية بإصداره لكتاب «الفهرست» وذلك منذ القرن الرابع الهجري . وفى القرن العاشر الهجري كتب طاشكبرى زاده كتابه «مفتاح السعادة ومصباح السيادة» وتبعه حاجى خليفة في أوائل القرن الحادي عشر الهجري بكتابه «كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون» والذي قام بتذييله إسماعيل البغدادي فى كتابة «إيضاح المكنون فى الذيل على كشف الظنون» .

هؤلاء قد اهتموا - على قدر طاقتهم وبمقاييس عصرهم - بتسجيل الإنتاج الفكري العربي المخطوط واستحقوا أن يلقبا برواد هذا المجال.

وفى العصر الحديث - وقبل ؛ يشرف القـرن التاسـع عشـر على نهايته - صدر عملان في مجال الببليوجرافية العربية للكتب المطبوعة أولهما يحده الزمن والمكان في مجال التجميع للكتب وهو «جامع التصانيف المصرية الحديثة» لعبد الله الأنصاري؛ حيث اقتصر في رصده على ما طبع في عشر سنوات وذلك للكتب العربية التي نشرت داخل مصر فقط منذ سنة ١٨٨٣ إلى سنة ١٨٩٢ ، وثانيها هو كتاب «اكتفاء القنوع بما هو مطبوع : من أشهر التأليف العربية في المطابع الشرقية والغربية» لإدوارد فنديك .

و بالرغم من المجال الواسع الذي يستشف من عنوان الكتاب، نجد أن فنديك لم يوفق في رصد ما صدر باللغة العربية من كتب مطبوعة بل ركز بالدرجة الأولى على الكتب التي تبحث في اللغة العربية و آدابها وفي الديانات والتاريخ ضاربا صفحا عما طبع باللغة العربية من كتب فى مجالات المعرفة .

جاء سركيس ليغطى النقص الذي استشعره من العملين السابقين فعقد العزم على معالجة هذا القصور بتجميع كل ما طبـع باللغة العربيـة ـ مؤلفـا ومترجما ـ في كل علم و فن و كله أمل أن يسجل ما نشر بالعربية فى أنحاء المعمورة في معجمه .

(٣) الوصف و المحتوى للمعجم :

يقع المعجم فى مجلدين من القطع الكبير و يتصدر المجلد الأول بعد صفحة العنوان شكر و تقدير تحت عنوان تقدمه يعبر فيها سركيس عن امتنانه لأحمد باشا تيمور لما لاقاه من مساعدة و تيسير في استخدام المكتبة التيمورية . يلي ذلك المقدمة التي شرح سر كيس فيها الدافع لإعداده معجمه و ما سبقه من أعمال والحاجة لوجود مثل هذا المصدر . يلي المقدمة تنبيه بكيفية استخدام الكتاب و قد استغرقت الصفحات التمهيدية من ص أ إلى ص د .

يلي ذلك متن الكتاب و يشغل ١٠١٢ صفحة مقسمة كل صفحة إلى عمودين و لكل عمود رقم مسلسل و بلغ عدد الأعمدة للمؤلفين الأفراد ١٩٦٠ عمودا يليها قسم للأعمال المجمعة من العمود رقم ١٩٦١ إلى ١٩٩٠ ، ثم يليها قسم الكتب المطبوعة المجهول أسماء مؤلفيها وذلك من العمود رقم ١٩٩١ إلى ٢٠٢٤ . ثم ألحقه بكشاف للعنوان أسماء الكتب وشمل الكشاف صفحات منفصلة الترقيم من ص١ ـ ص١٥٢. يلي الكشاف صفحات لتصويب الخطأ تحت عنوان «استدراك ما وقع فى المعجم من السهو والخطأ مع تصحيحه» و ذلك في ترقيم منفصل من ص١ ـ ص١٧ . وتحت عنوان ملحق فهرس أسماء الكتب ذكر سركيس ٣٥ عنوانا لم يرد ذكرهم في المتن الأصلي للمعجم .

هذا عن المعجم الأساسي أما الملحق فقد صدر منفصلا و هو : ـ

جامع التصانيف الحديثة التي طبعت في البلاد الشرقية و الغربية و الأمريكية من سنة ١٩٢٠ إلى سنة ١٩٢٦ . مصر، مطبـعة سركيس، و صـدر سنـة

١٣٤٥ هـ/١٩٢٧م . هذا عن الجزء الأول من الملحق، أما الجزء الثاني فقد صدر سنة ١٩٢٨ ليغطى المطبوعات العربية التي صدرت سنة ١٩٢٧، وفيه تصحيح ما ورد بالجزء الأول من أغلاط و ما أغفل ذكره من المطبوعات و قد جاء الجزآن في حجم صغير و يتضح من مقدمه الملحق أنه سبق المعجم الأصلى فى نشره.

(٤) مجال معجم المطبوعات العربية و المعربة و مدى شموله :

يتضح المجال الذي وضعه سركيس عند إعداده لمعجمه من العنوان الفرعى : و هو شامل لأسماء الكتب العربية المطبوعة فى الأقطار الشرقية و الغربية مع ذكر أسماء مؤلفيها و لمعة من ترجمتهم وذلك من يوم ظهور الطباعة إلى نهاية السنة الهجرية ١٣٣٩ الموافقة ١٩١٩ م. أى أن تجميعه وضع على أساس رصد كل ما نشر من مؤلفات و مترجمات عربية و أنه لم يدع أحد ـ على حد تعبيره ـ صنف في الأدب أو في التاريخ أو فرع من الفنون في أنحاء المعمورة إلا وذكره .

ومهما كانت طموحات سركيس من خلال المجال الذي حدده لتجميع المطبوعات العربية ـ فإن سعة هذا المجال لا يقوى عليها فرد مهما أوتى من عزم و عزيمة و مهما توفرت له الإمكانات وحتى إذا قسنا هذه الإمكانات بمقاييس نهاية القرن العشرين و ما استجد من تقدم في ميدان اختزان و استرجاع المعلومات، حيث ثبت بما لا يدع مجالا للشك ـ و من خلال الدراسات الببليوجرافية للإنتاج الفكري للكتب العربية في القرن التاسع عشر ـ أن سركيس قد أقتصر في تجميعه على أقل من نصف عناوين الكتب العربية المسجلة في رصيد دار الكتب المص لنفس الفترة.

فإذا كان هذا الرصيد في مكان واحد وداخل القاهرة فما بالنا بما هو موجود خارج مصر و بمكتبات العالم من كتب عربية ـ مؤلفة و مترجمة.

يتضح هذا القصور في التجميع و الحصر للكتاب العربي المطبوع عند فحص أعمال المؤلفين الذي ترجم لهم سركيس حيث يذكر أن لهذا المؤلف كتب عديدة . نذكر منها على سبيل المثال .. ثم يورد عملا أو اثنين فقط . كذلك عند مقارنة ما صدر فى تجميعه لملحق المعجم «جامع التصانيف الحديثة» نجد أنه لم يوفق إلا فى تجميع ١١٪ فقط من الكتب العربية التي نشرت داخل مصر لهذه الفترة .

هذا القصور في التغطية للكتاب العربي المطبوع و العجز عن رصده من كافة مظانه يرجع إلى عدة عوامل أهمها :

١. سعة المجال الموضوعي الذي وضعه سركيس لمعجمه حيث شمل جميع فروع المعرفة باستثناء كتب الروايات الحديثة و الكتب الدينية المسيحية و المجلات و الجرائد .

٢. اتساع المكان بل شموله حيث لم يقصر تجميعه على قطر أو أقليم أو حتى قارة بل شمل كل المعمورة ـ على حد قوله ـ نراه و كأنه قد أدرك ضخامة المجال الذي حدده لنفسه عند كتابته المقدمة وحيث يقول : و يغلب الظن أنه فاتني بعض من الكتب ... لأني طالعت في تراجم علماء إيران ذكر آلافًا من الكتب التي وضعوها باللغة العربية .

٣. العقبات الجسام التي تعترض القائمين بتلك المشاريع العملاقة و عدم وجود المصادر الكافية التي يمكن الاعتماد عليها والثقة بها .

٤. رغم ما يحسب لسركيس من جهد جبار في مجال الترجمة لسير المؤلفين قبل الإشارة إلى أعمالهم، فقد شتت مجهوده فى اتجهاين فاهتم بالتراجم بالدرجة الأولى و بعد عن الاتجاه الثاني و الأساسي والذي من أجله وضع معجمه ألا وهو حصر المؤلفات العربية المطبوعة وليس كتابه تراجم مؤلفيها.

(٥) المعالجة لمادة المعجم :

رتب سركيس معجمه فى معجمه فى المتن هجائيا باسم المؤلف باختيار مدخل المؤلف باسم الشهرة سواء على أساس اللقب أو الكنية أو اسم الأب أو الابن إن لم يكن له اسم شهرة فبالاسم المعروف به، وفى مشقة للباحث فالبرغم من الإحالات التي أوردها سركيس من أجزاء الاسم المختلفة ـ في حالات كثيرة ـ والإحالة إلى الجزء المستخدم من الاسم، فإن البحث عن اسم مؤلف٦ معين يحتاج إلى جهد من قبل الباحث . يلي اسم المؤلف سنة الميلاد و الوفاة و في حالة ذكر تاريخ واحد فهذا يعنى سنة الوفاة هذا و يكتب سر كيس في الترجمة لأشخاص قد تصل كتابه سيرتهم لأكثر من صفحة و قد يقتصر فى أحيان أخرى على ذكر اسم المؤلف فقط . يتبع ذلك سرد مؤلفاته و محل طبعها و السنة التي طبعت فيها مع الإشارة في بعض الأحيان إلى موضوع الكتاب . كذلك قد يورد الطبعة و عدد الصفحات أو المجلدات و لكن ليست هناك قاعدة واحدة متبعة .

وقد حرص سركيس على ذكر المصادر التي اعتمد عليها سواء في مجال التراجم للمؤلفين أو المؤلفات والمترجمات و أثبت تلك المصادر في حواشي أسفل الأعمدة بالصفحات، لكنه للأسف لم يذكرها مجمعة ـ كما وعد بالمقدمة أنه على حد قوله : سنذكر فى آخر المعجم أسماء المخطوطات و المطبوعات التى استشهدنا بها لتعرف المصادر التي استقينا منها ... ولكن يشفع له ـ في هذه الهنة ـ ما ورد كما ذكرنا في الحواشي من المصادر المطبوعة والمخطوطة ومن فهارس المكتبات، قومية وخاصة، واشارته في بعض المواضع إلى نقد لعنوان ورد في كتاب أو دورية كذلك .

حرص سركيس على ذكر أمكنه نسخ الكتاب في أحيان كثيرة ـ في مكتبات العالم و بطبعاتها المختلفة وقد اعتنى أيضا بذكر الكتب التى وضعت على هوامش متن معين و ذلك بالنص على اسم المؤلف و عنوان الكتاب الموجود بهامش الكتاب الأصلي .

ولكن يؤخذ على سركيس عدم اعتنائه بوضع كشاف للمؤلف و لا يقول هنا يجب الحكم عليه بمقياس عصره ذلك لأنه وضع هذا الكشاف بالملحق الذي أصدره لمعجمه و الذي أشرنا إليه من قبل و هو «جامع

التصانيف الحديثة» والذي يظهر من مقدمته تقدم تاريخ نشره عن المعجم الأصلي كذلك لعدم وجود كشاف بالموضوع يتعذر على الباحث عن مطبوعات في مجال تخصصه أو فى موضوع معين، الوصول إلى تلك المطبوعات لتناثرها في ثنايا المعجم ولا توجد وسيلة لجمع شتاتها في كشاف هجائي منتظم.

فالمعجم بترتيبه الحالي يفيد الباحث ـ بقليل من المشقة ـ إذا أراد الوقوف على تراجم للمؤلفين و لكن يتعذر عليه الوصول إلى المطبوعات فيموضوع معين ولابد له من المعرفة الكاملة بالعنوان الصحيح للكتاب حتى يستطيع أن يصل إليه عن طريق كشاف العنوان أو كما أطلق عليه «فهرس أسماء الكتب».

لكن يبقى هذا المعجم القيم برغم القصور في التجميع أو وضع مفاتيح الوصول إلى المادة المطبوعة و موضوعها في ثناياه في شكل كشافات، يقول يبقى مرجعا أساسيا في المكتبة العربية و مصدرا ببليوجرافيا هاما و دليلا للإنتاج الفكري العربي مؤلفا ومترجما.